إنتاج كتابي حول حريق في بيت الجيران

كَانَتْ السَّاعَةُ تُقَارِبُ العَاشِرَةَ مَسَاءً حِينَ اسْتَلْقَيْتُ عَلَى ظَهْرِي وَحَاوَلْتُ أنْ أغْمِضُ جُفُونِي كَيْ أنَامَ ، لَكِنّي فُوجِئْتُ بِصَوْتِ امْرَأةٍ تَبْكِي وَتَصْرُخُ وَتَنْدُبُ حَظَّهَا ، قَفَزْتُ مَفْزُوعًا أبْحَثُ عَنْ مَصْدَرِ الصَّوْتِ ،وَإذَا بي أرَى أمِّي تَرْكُضُ صَوْبَ بَيْتِ الجِيرَانِ ، هَرعْتُ رَاكِضًا وَرَاءَهَا .. أصْرُخُ : "انْتَظِرِينِي ...."

وَمَا إنْ وَصَلْتُ إذْ بِي أصْدَمُ وَ عَيْنَايَ تَدْمَعَانِ وَقَلْبِي يُدَمَّرُ لرُؤيَةِ نَارٍ عَظِيمَةٍ شَبَّتْ وَاسْتَوْلَتْ ألْسِنَةُ لَهبِهَا ، ذَلِكَ البَيْتُ الذِي اعْتَبَرْتُهُ بَيْتِي الثَّانِي ، لَطَالَمَا كَانَ يَنْبُضُ بِالحَيَاةِ لكِنَّهُ اليَوْمَ يُقْتَلُ أمَامِي عَلَى يَدِ نَارٍ لاَ تَرْحَمُ.

اِلْتَفَتُّ حَوْلِي أبْحَثُ عَنْ صَدِيقِي ، خِفْتُ عَلَيْهِ أنْ يَكُونَ فِي وَسَطِ ذَلِكَ الصّرَاعِ الذِي يَدُورُ بَيْنَ المَوْتِ وَالحَيَاةِ وَبَيْنَ البَقَاءِ وَالفَنَاءِ ،أخذْتُ أمْسَحُ المَكَانَ بِنَظَرَاتِي وَأثْنَاءَ البَحْثِ عَنْهُ رَأيْتُ الكَثِيرَ مِنَ الوُجُوهِ المَذْعُورَةِ وَالمُتَحَسِّرَةِ عَلَى هَذِهِ الكَارِثَةِ ،ثمّ لَمَحْتُ صدِيقِي مُنْهَارًا يبْكِي ، أمْسَكْتُ بِيدِهِ وَألْقَيْتُ نَظْرَةً صَغِيرَةً إلَى البَيْتِ فَلَمْ أتحَمَّلْ ذَلِكَ المَنْظَرَ ..وَضَمَمْتُه بِشِدَّةٍ هَامِسًا فِي أذُنِهِ بِصَوْتٍ خَافِتٍ : " لاَ تخفْ وْلا تحْزَنْ ".

نَظَر إليّ وَدُمُوعُه تَسِيلُ عَلَى وَجنَتيْهِ كَالجَمْرِ المُشْتَعِلِ ،صَرَخ فَجْأةً : "لاَ.. لاَ .. لمَا بَيْتِي ... لِمَا ؟؟ آهٍ.. آهٍ.. لَوْ لَمْ تَتْرُكْ أمِّي ذَلِكَ الفُرْنَ مُشْتَعِلاً لَمَا احْتَرَقَ .. "وَصَمَتَ لِبُرْهَةٍ وَألْقَى عَلَى البَيْتِ نَظْرَةً بَرِيئَةً كَطِفْلٍ يَبْكِي عَلَى فِقْدَانِهِ حُضْنًا أوَاهُ ، وَهُوَ يَصْرُخُ بِدَاخِلِهِ مُتَحَسِّرًا مُتَألِّمًا عَلَى فِقْدَانِهِ إيَّاهُ.

مكتبتي
www.mektabeti.com

وَلاَ أَسْتَطِيعُ نِسْيَان تِلْكَ الدُّمُوعَ التِي كَانَتْ تَتَرَقْرَقُ فِي عَيْنَيْهِ كَحَبَّات البِلَّوْر ، فَصِرْتُ أوَاسِيهِ ، لَعَلّي أَخَفِّفُ عَنْه مُعَانَاته .

وَفي ذَلِكَ الوَقْتِ اجْتَمَعَ رِجَالُ الحَيّ وَمعَهُمْ أَبِي وَحَشْدٌ كَبِيرٌ منَ رِجَالِ الإِطْفَاءِ يُحَاوِلُونَ بِكَافَّةِ الطُّرُقِ وَالوَسَائِلِ إِخْمَادَ الحَرِيقِ ، الكُلُّ يَعْمَلُ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَقَد اتَّحَدُوا عَلَى هَدفٍ مُشْتَرَكٍ وَهُوَ القَضَاءُ عَلَى ألْسِنَةِ النّيرَانِ التِي كَانَتْ تَزْدَادُ وَتَنْتَشِرُ مِثْلَ رُؤُوسِ الأفَاعِي التِي تَنْشُرُ سُمَّهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ .

تَمُرُّ السَّاعَةُ تِلْوَ الأُخْرَى وَالكُلُّ يُسْرِعُ وَيُشَارِكُ فِي هِمَّةٍ وَحَمَاسَةٍ لِلْقَضَاءِ عَلَى النِّيرَانِ التِي لَمْ تَدَعْ صَغِيرا أَوْ كَبِيرًا دَاخِلَ البَيْتِ إلاَّ وَقَدْ قَضتْ عَلَيْهِ وَجَعَلَتْهُ فِي عَالَمِ النّسْيَانِ .

مَشَاعِرَ الحُزْنِ وَالحَسْرَةِ تُرْسَمُ عَلَى وُجُوهِ أَصْحَابِ البَيْتِ ، دُمُوعٌ تَنْهَمِرُ عَلَى ذِكْرَيَاتٍ تَلاَشَتْ وَأَصْبَحَتْ فِي عَالَمِ الذّكْرَيَاتِ ،آمَالٌ وَطُمُوحَاتٌ تَوَارَتْ لِلأَبَدِ .

وَبعْدَ أَنْ هَدَأَتْ الأُمُورُ دَخَلْنَا البَيْتَ فرأَيْتُ الأمّ وهيَ تَبْكِي وَتُحَاوِل جَمْعَ مَا تَبَقَّى مِنْ حُطَامٍ ، وصدِيقِي يحاوِل إزالَةَ الرَّمَادِ عَنْ ألْعَابِهِ وَكُتُبِهِ وَإِرْجَاعِهَا ولَكِنْ هَيْهَاتَ.

وأبٌ يمْسَحُ بِيدِهِ ذَلِكَ السَّوَادَ بَاكِيًا عَلَى خُسْرَانِهِ مَنْزِلِهِ ، حَقًّا تِلْكَ المَنَاظِرُ لاَ تَسْتَطِيعُ الكَلِمَاتُ وَصْفَهَا .

بَاتَتْ عَائِلَةُ صدِيقِي عِنْدَنَا وَكَانَ صَدِيقِي مَعِي فِي غُرْفَتِي ،وَقدْ ظَلَّ طَوَالَ اللَّيلِ يَنْظُرُ مِنْ شُرْفَةِ غُرْفَتِي التِي تُطِلُّ عَلَى بَيْتِهِمْ المُظْلِم ، يَبْكِي مُحَطّم الفُؤَادِ تَائِهٌ فِي حَسْرَتِهِ وَحُزْنِهِ ، يُوَدّعُ بَيْتَهُ الذِي نُقِشَتْ فِيهِ أَجْمَلُ الذّكْرَيَاتِ وَالآمَال وَالطُّمُوحَاتِ وَالتِي حُرِقَتْ مَع تِلْكَ الجُدْرَانِ.

بَعْدَ عِدَّةِ أَيَّامٍ رَحَلَ جِيرَانُنَا إِلَى بَيْتٍ جَدِيدٍ عِوضًا عَنْ بَيْتِهِمْ .. وَدَّعْتُهُم وَقَد رَسَمْتُ بَسْمَةَ أملٍ كَاذِبَة لفُراقِهِمْ ، وَوَعَدْتُ صَدِيقِي عَلى أملِ اللّقَاءِ .

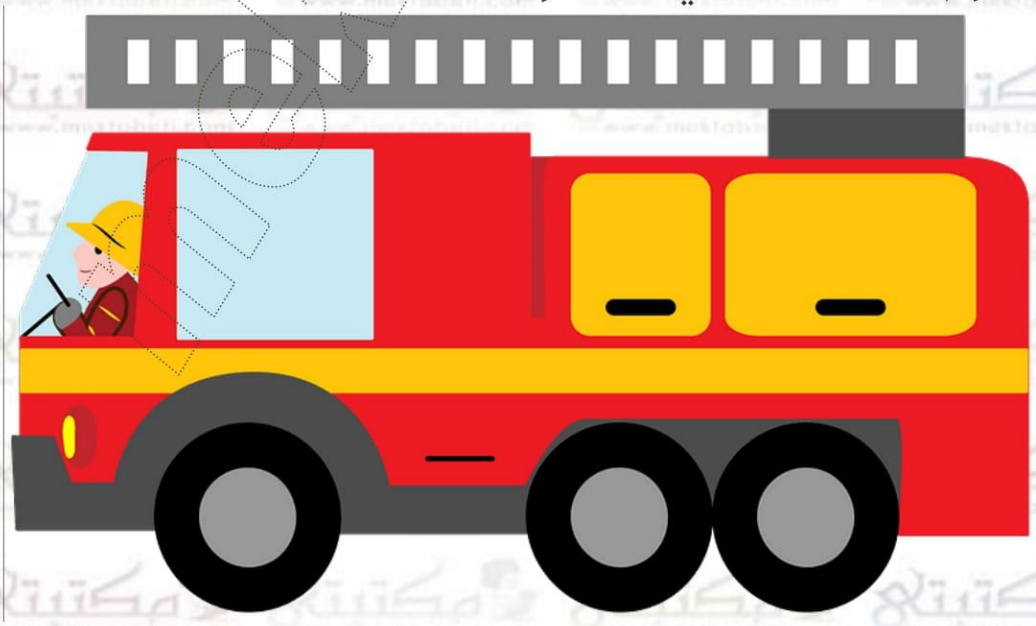

مكتبتي
www.mektabeti.com